والذعر ، فلا تلبث أن تزى الدنيا كأنها تبعث عوياها فى أثر الفواجع والنكبات !...

وقل مثل ذلك فيما شئت مما تحويه عوالم الجماد ... فإن لكل منها حديثاً شائقاً ، يحفل بالحكمة والروعة والجلال !...

أرأيت إلى الصمت بين الطلل الشاخص ، والرسم الدارس؟... كيف هو إصغاء للتاريخ يبثك حديث الأمس القريب أو البعيد ، ويسترجع لك خوالى الحقب وغوابر الأحداث ، فإذا أنت فى خطفات من وقتك ، إزاء هذه الأطلال الشواخص والرسوم الدوارس ، تستجليها جديدة البنيان ، شامخة الأركان ، متخذة أبهى زينة وزخرف ، آهلة بمن عمروها من الناس كأن لم يترحّلوا عنها ، وكأن لم تلعب بها وبهم دائرة الأيام ؟!...

أرأيت إلى الصمت فى بيوت الله ، من معابد ومعاهد ، كيف هو إصغاء إلى هتفات سماوية من القدس الأعلى ، تندى بها نفسك القلقة الحيرى ، كما يندى ظامىء الزهر ، فى مطالع الأسحار ، بما يتهادى عليه من قطرات الطل ... فتحس بروحك قد شملتها هزة من نشوة وانتعاش ، هى هزة الرضا والإيمان !...

أرأيت إلى الصمت ، فى مدينة الصمت ، مدينة الموتى ، بين الضرائح والقبور ... كيف هو إصغاء لأروع ما تمخضت عنه